المفهوم الروحي للشعلة في طقس عيد اكتشاف خشبة الصليب المقدس

إعداد الأب الخوري د. يوسف البناء

أيها الأحباء:

كم من أعمدةٍ إرتفعت صلبانا، وكم من ألسنةٍ إنطلقت تتحدّثُ إفكاً وبهتانا، وكم من مؤرخٍ سطّر ما يشتهي من ضلالاتٍ بالزور إمعانا، صليب الحقّ وحده كان ميزانا، هو وحده حملَ من وافانا، فافتدانا؛ عليه ارتفع الكلمة، إلهاً وإنسانا، إرتفع ليمحوَ الذنوبَ، مقرّباً ذاته قربانا؛ فعلى الصليب تم الفداءُ وأهرقَ دمٌ مقدَّسٌ لمن تنازلَ من عليائِهِ يرعانا، فافتدانا.

الرب يسوع المسيح، بإرتفاعه على الصليب أظهر لنا المحبة الإلهية بأسمى وأبعد معانيها متمثلة بإعلان الله محبة (1يو4: 16)، وقد استعلنت هذه المحبة الإلهية في سفر نشيد الأنشاد بالآية العظيمة: لأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ. الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَاوِيَةِ. لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارٍ لَظَى الرَّبِّ (نش8: 6)، فارتبطت النار الإلهية والصليب الحي، بيسوع المسيح مرتفعاً على الصليب ليفتدي البشرية، استعلاناً لأبعد مديات مفهوم المحبة الإلهية في اسفار الكتاب المقدس، بربطها بالنار الإلهية التي تشير إلى الله، من خلال أحداث أسفار الكتاب المقدس؛ فالله كلم موسى النبي على جبل حوريب من خلال عليقة متقدة وهي لا تحترق (خر3: 1 – 5)، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على الجبل في سيناء أمام عيون بني إسرائيل (خر24: 17)، وكما جاء في (تث4: 24): لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ، إِلَهٌ غَيُورٌ، وفي (عب12: 29): لأَنَّ إِلَهَنَا نَارٌ آكِلَةٌ.

والرب يسوع استشهد بالحية النحاسية التي رفعها موسى بأمر الرب في البرية لتكون خلاصاً وحياةً لكل ملدوغٍ بالحيات النارية، رمزاً للمحبة الإلهية في أرتفاع إبن الله الوحيد على الصليب ليكون خلاصاً لكل ملدوغٍ بالخطية (يو3: 14 – 16).

ومن جانب آخر، فإن الملكة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين، يوم اكتشفت خشبة الصليب المقدس في أورشليم، سنة 326.، وأمرت أن توقد مشاعل عظيمة في ربايا الحاميات الرومانية على قمم الجبال، كي ينتشر خبر اكتشاف خشبة الصليب المقدس ويصل الخبر سريعا إلى ابنها في القسطنطينية.

بهذه المعطيات الإلهية، ترسخت في نفوس المؤمنين علاقة الصليب المقدس بالشعلة النارية، حيث ينظر المؤمن دائماً بالروح لهيب نار لظى المحبة الإلهية بيسوع المسيح معلقاً على الصليب، كما صرخ الرسول بولس قائلاً: لأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا بَيْنَكُمْ إِلاَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإِيَّاهُ مَصْلُوبًا، (1كو2: 2).

وهكذا الكنيسة المقدسة في طقسها الأرثوذكسي، توقد شعلة أمام الصليب المقدس في يوم عيد اكتشاف الصليب، مع التراتيل الروحية والصلوات التي تمجد وتعظم يسوع المصلوب وتكرم الصليب الذي تضرج به دم الفادي الأقدس، حيث المؤمن المسيحي في العهد الجديد يشترك مع يسوع في ذبيحة الصليب، إذ هو عضو في جسد المسيح الطاهر، لينعم بما أكمله الفادي على الصليب فيصرخ مع الرسول بولس: مع المسيح صلبت فأحيا، لا أنا بل المسيح يحيا فيّ (غل2: 20)، إذ أصبح المؤمن يتقدم أولاً إلى الله في

طاعة كاملة وإرادة صادقة، واضعاً نصب عينيه طاعة الصليب بمحبة قوية كالموت وغيرة متقدة كلهيب النار، ليكون أهلاً أن ينال رضا الرب ومسرته كي يتمتع ومن خلال ما أتمه الرب يسوع على الصليب للمؤمنين به بالنعم الإلهية، فينال المؤمن غفران الخطايا والآثام، والشركة في سلام مع الرب.

وقد تحدث بعض الأحيان ممارسات تعبر ببساطة عاطفية عن تمادي في الإكرام تجاه خشبة الصليب الحي والمحبة الإلهية بالنار الإلهية المرتفعة عليه بيسوع المسيح، كأن يوقد نار بالصليب رمزاً للعليقة المتقدة وهي لا تحترق، هكذا خشبة الصليب المقدسة، التي حمل لهيب نار المحبة الإلهية بيسوع المسيح ولم تحترق، وهذه ممارسات متطرفة وغير محببة في المجتمع المسيحي وغير واردة في الطقوس المسيحية المعتمدة في الكنائس، فهي تصرفات فردية لا تؤيدها الكنيسة المقدسة، إذ قد يستغلها المتصيدون للطعن بالأيمان المسيحي أو بإهانة من يقوم بذلك ولأسباب ونوايا متنوعة، فتسبب ضيقةً وإزعاجاً للمؤمنين الغيورين.

والمؤمن المسيحي يعي جيداً أن الممارسات التي تحاول النيل من مكانة الصليب وكرامته وقداسته في نفوس المؤمنين المسيحيين، لا مفعول لها ولا تأثير بأي شكل كان على الأيمان الحق، فالمكانة العظيمة للصليب المقدس في الحياة الأيمانية المسيحية، راسخة وهي أن الصليب أصبح في المسيحية يمثل عرش الله على الأرض، بإرتفاع ابن الله عليه ذبيحة عن البشرية، ليملك على السماء والأرض (مت28: 18)، والصليب هو قوة الله (1كو1: 18) فهو قوتنا، هو تعبير صادقٌ عن إيماننا بيسوع المسيح ابن الله المتجسد الذي صار إنسانا، وارتفع على الصليب ذبيحة عنا، وملك على الصليب لينشر ملكوت السماء على السماء والأرض، فعليه ارتفع ابن الإنسان ليرفعنا معه نحو السماويات؛ ولهذا نحن المسيحيون نكرم الصليب ونسجد للصليب ونعظم الصليب، ونرسم إشارة الصليب على جباهنا باستمرار وتكرار، معلنين إيماننا وعقائدنا من خلال إشارة الصليب المقدس؛ والمجد والسجود والإكرام للمسيح المصلوب والآب السماوي وروحه القدوس إلى أبد الآبدين آمين.